موسيقى الشباب .... وشباب الموسيقى

أ. محمد احمد جمال (البحرين)

قبل عدة سنوات وفي هذا المكان ، كان أحد الزملاء يقدم ورقة عن ذوق الشباب المعاصر في الموسيقى ، و أبدى الكثير من الانزعاج مما قد تؤول اليه الامور و يتخلى الجيل الجديد عن ملمح من الملامح التي ساهمت في تشكيل الهوية العربية أمام هذا الطوفان من الثقافات الغربية الدخيلة التي تقذف بها ما ابتكرته عقولهم من اختراعات كالستلايت والانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي المختلفة .

وبعد الانتهاء من الورقة بدأت المداخلات ووقف احد المتداخلين وقال في بداية كلامه : نشكو كما تشكون ....ثم استمر في شرح خطورة توجه الشباب الى الوجبات السريعة والتخلي عما يعتقد انه المفيد والصحي . كان المتحدث وكيل وزارة الصحة في مملكة البحرين الذي كان يحضر مؤتمرا عن الشباب والوجبات السريعة ، ولم يقدم لنا كلا من المحاضر و المتداخل حلولا شافية لما رأياه انها مشاكل يتعرض لها الجيل الجديد من الشباب .

ان من الآمور التي لا يختلف عليها اثنان ان الاجيال تتغير وان الواقع الذي عليه جيل اليوم يختلف عما كان عليه جيل الاباء والاجداد، ويشمل هذا التغيير شتى مناحي الحياة من مأكل وملبس والاختراعات وطرق المواصلات و جميع اسباب المعيشة وكذلك وسائل التسسلية والترفيه و أساليبها ...فلم يعد أطفال اليوم يلعبون في الشارع ما توارثوه من العاب شعبية بعد ان توفر لهم البلاي ستيشن ... كما مس التغيير حتى طرق تسريحات الشعر .

وقد عبر العلامة ابن خلدون عن تلك الاختلافات بقوله : " اعلم ان اختلاف الاجيال فى أحوالهم انما هو اختلاف نحلتهم في المعاش " . (١)

اذن فهو اختلاف طبيعي في ألآهواء و ألآذواق والمشارب جاء بفعل تعاقب السنين ، وليس من المحتوم ان يؤدي هذا الاختلاف الى خلاف ، وشتان شتان بين المفردتين ، فالاختلاف هو التباين الطبيعي بين جيل نما على ثقافة معينة وبين جيل اتى بعده بثقافة اخرى قد تختلف بشكل أو باخر عما سبقتها...ولكن كما يشاهد ويرى تطور هذا الاختلاف الى خلاف شمل الكثير من نواحي الحياة .

هذا الامر في الواقع من شأن علماء الاجتماع ولا يمكننا الخوض فيه ولكن الملاحظ ان الموسيقى و الغناء لم يسلما من الخلاف لا في الاداء فقط بل حتى في الاستماع والتذوق ، وشاع مصطلح سرعان ما انتشر تحت مسمى الاغنية الشبابية ، واصبح مادة دسمة لكتبة الاعمدة الفنية في الصحف العربية وبعض مقدمي البرامج في محطات التلفزة العربية ، فقدموا الكثير من الحلقات باستضافة من يمثل وجهات النظر المختلفة وقدم كل طرف ما يعزز من وجهة نظره ،

فالبعض يستشعر الخطر الشديد الذي قد يجرف ما يتمتع به الفن من رقي و سمو ، و يتحول بفعل العولمة الى الابتعاد عن الذوق السليم و تصبح مادة أقرب الى التفاهة منها الى الفن الذي يجب ان يسمو ويرتقي باذواقنا كما أبدى الطرف الاخر وجهة النظر التي تدافع عن رأيه و ذوقه الفني الذي كونته الظروف المعيشية الحالية .

ونلخص في عجالة اراء كل طرف و ما يستشهد به لتبيان وجهة نظره في نقاط :

ـ من المعلوم ان الفئة العمرية مابين خمسة عشر و خمس وعشرين سنة تمثل ما نسبته ٧٥٪ من التعداد السكاني في الوطن العربي ، وتعتقد هذه الفئة ان لها مطلق الحرية في الاستماع الى ما يتوافق مع ذوقهم الشخصي دون اية ضغوط أو فرض اراء استبدادية من أي طرف كان .

ـ حيث ان جيل الشباب هو جيل الحركة والنشاط فمن الطبيعي أن يختاروا الغناء الخفيف والسريع الايقاع الذي يتناسب مع الرقص والحركة ، ويقول قائلهم ان ايقاع الوقت يفرض علينا عدم قضاء الساعات الطوال في الاستماع الى قصيدة مكونة من خمسين بيتا يتطلب اداؤها أكثر من ساعة .

ـ يمتاز جيل اليوم بتنوعه الثقافي لوجود عدد من المدارس الاجنبية في أقطارنا حيث يتبنى خريجوها الثقافة الاجنبية باعتبارها ثقافتهم الاولى ، فمن الطبيعي ان يحتفون بأغاني الروك والبوب والجاز وسائر أغاني الحركات الراقصة وموسيقاها .

ـ يرفع أبناء هذا الجيل أصواتهم بالشكوى من ألآوامر التي يحاول الطرف الاخر فرضها ، ويتذمرون من التمسك الحرفي بالتقاليد علما بأن التقاليد ذاتها قد أصابها التغير و التبديل .

بالمقابل ، يتمسك من يمثل الجيل الاخر ببعض الاراء نلخصها أيضا في نقاط :

ـ الفنون الغنائية العربية و المتمثلة فيما تم توارثه من عشرات المقامات وفروعها تعد جزءا من الارث الثقافي العربي ، واهمالها يعد تفصيرا يرقى الى مستوى الجريمة .

ـ الفنون الغنائية العربية ثرية جدا بمكوناتها في كل قطر عربي ولكل دولة فنها الخاص والمتميز والذي يشكل في مجمله اثراءا للفن العربي بصفة عامة ، ففي دول المغرب هناك النوبة الاندلسية وموسيقى الاله والمألوف والغرناطي و عشرات غيرها ....وفي الشام الغناء الجبلي والميجانا والعتابا والقد الحلبي وعشرات غيرها...وفي العراق المقام والبستة والنايل و عشرات غيرها...والجزيرة العربية والخليج يوجد الصوت والسامري والمجس والمجرور وعشرات غيرها...

كل ما تقدم للمثال وليس الحصر، وهذه الفنون تشكل جزءا من الهوية الثقافية العربية ولا يجوز بأي شكل من الاشكال اهمالها أو العبث بها.

ـ معظم أغاني الحركة الشبابية تتكون من جملة موسيقية واحدة تتكررويصاحبها ايقاع صاخب وآلات كهربية عالية الصوت ، كما ان الاغنية ذاتها تحولت من اغنية مسموعة الى اغنية مرئية ، وكانت أغاني (الزمن الجميل) تحرك الرأس طربا بينما أغاني الشباب تحرك

الوسط ، وكان المطربون القدامى يتباهون بحناجرهم التي قد تصل الى ثلاثة اوكتافات بينما مطربوا الزمن الحاضر يستعملون جميع أعضائهم الجسدية في الغناء ما عدا حناجرهم...

- يترنم مطربوا (الزمن الجميل) بالاشعار العربية أو العامية الرصينة التي تخلو من الاسفاف و الالفاظ البذيئة وتخضع لرقابة رسمية ، كما ان الملحنين على دراية تامة باصول الانغام و امتزاجها مع ما توافق من مشتقات مقاماتها مثلما يمزج الفنان التشكيلي الالوان ليخرج لنا بلوحة جميلة ، أما كلمات الاغاني الحالية ...فلا تعليق...

ما ذكرناه اعلاه ، هو مختصر حوارات الشد والجذب التي ترسخت لتحكي ثقافة جيلين مختلفين في السن وفي الذوق ، وجاءت تسمية الاغنية بالشبابية تمييزا عن النوع الاخر من الاغاني التي يستمع اليها من تجاوز مرحلة الشباب وأصبح ثقيل الحركة ناهيك عن مقدرته على النط والرقص .

وكما نعلم جميعا ان الغناء هو وسيلة هامة من وسائل التعبير عند الانسانية جمعاء ، قد يكون تعبيرا عن الحب والشكوى أو الحزن وسائر الشعور الانساني ، وقد تثير بعض انماطه المتوسلة بالفكاهة الضحك ، وقد يحرك الغزائز مثلما يثير الحماسة والحمية ، وصاحب في بعض صوره العمال في مصانعهم والفلاحين في حقولهم ، ويسافر مع البحارة وهو رفيقهم أثناء رفع ألآشرعة والمراسي .

ومثلما تعددت أغراض الغناء فقد تعددت أنماطه أيضا من خفيف وثقيل وسريع ، وهذا التصنيف معروف من قدم عند الانسانية جمعاء كما عرفه العرب أيضا في بداية معرفتهم بالغناء ، ذكر المفضل بن سلمه في سياق شرحه للغناء عند العرب : " كان غناء العرب على ثلاثة أوجه ، النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فهو غناء الركبان وهو الذي يقال له المراثي ، ويغنيه الفتيان ، و أما السناد فهو الثقيل ذو الترجيع والنغم والنبر وأما الهزج فهو الخفيف الذي يمشى عليه ويستخف الحلوم ".(٢)

أثبت لنا المفضل ان العرب عرفوا فيما عرفوه من الغناء لونا يتشابه مع ما درجنا على تسميته بالاغنية الطربية فقوله : " ذو الترجيع والنغم " هي صفة لها ...أما وصفه للهزج انه يستخف الحلوم ، أي ان الشخص الحليم يفقد اتزانه طربا عند الاستماع اليه وهذا بالضبط ما تفعله الاغاني الشبابية

كما أثبت المطرب معبد هذا الرأي في قصة حدثت له رواها صاحب كتاب الاغاني ملخصها انه كان في احد حمامات الشام و التقى احد الاثرياء فدعاه الى قصره وابتدأت حفلة الطرب فكان معبد " لا يخرج من حسن الا الى احسن منه ".. والرجل الشامي غير مبال بمعبد ولا بما يغنيه .فلما أخذ به الملل صاح : يا غلام ، شيخنا ... شيخنا....فدخل رجل وفي يده دف فأخذ في الرقص والغناء وكان يردد : سلور في القدر ويلي علوه...جاء القط وأكله ويلي علوه...فأخذت النشوة بالقوم كل مأخذ - والكلام لمعبد - فقاموا بالرقص جميعهم و ساد الهرج ...فتسلل معبد خارجا لانه لم ير قوما " أكثر جهلا منهم " (٣)

فهمنا من هذه الحكاية ان معبد التقى باناس لا تهمهم الكلمة ولا اللحن بقدر اهتمامهم بالحركة والرقص .

ومن معبد الى عبدالحليم حافظ ، فقد غنى أغنية عنوانها ياسيدي امرك في احد افلامه في الخمسينات من القرن الماضي وكانت كلماتها عبارة عن حوار يدور بينه وبين احد عاشقي الغناء القديم الذين لا يؤمنون بالتغيير .

ان أغراض الغناء و أنواعه متعددة منذ ان عرف الغناء الى يومنا هذا ، ويعتمد مدى انتشار كل نوع على عوامل عديدة ولا يمكننا ان نستثني العامل التجاري الذي دخل على الخط بكل قوة و اندفاع بعد اختراع الجرامافون ، فقد كان وجوده السبب الرئيس في تأسيس تجارة الفن ووصول الاغنية الى المستهلك حيث هو في مكانه ، بعد ان كان يتلمسها في المسارح والاندية الليلية . و بدأت اغراءات المادة تطفو على السطح ، ووجدت فئة من الفنانين في الاسفاف والكلمة البذيئة وسيلة من وسائل الكسب والاسترزاق فشاعت اغنيات مثل تعال يا شاطر نروح القناطر هات القزازة والمزة طازه ....واخرى تقول : على سرير النوم دلعني... ولم يتوانى حتى من هم محسوبون من كبار الفنانين النزول الى هذه المنزلة ، فكانت اغنيات مثل : فيك عشرة كوتشينه في البلكونه ...واخرى : الخلاعه والدلاعه مذهبي من زمان اهوى صفاها والنبي....

غير ان انشاء الاذاعات الرسمية وضع حدا لانتشار مثل هذه ألآغاني لوجود لجان تشرف على النصوص ، فأصبح لكتاب الكلمة مكانة اجتماعية مرموقة ، ولكن سرعان ماعادت الكلمة وتحررت من كل أشكال الرقابة وذلك بفضل الانتشار السريع والمذهل لوسائل التواصل الاجتماعي الذي لا يخضع الا الى الرقابة الذاتية.

ولا يبدو في الافق ان هذا التصنيف سينتهي أو سيتغير، بل سيضل باقيا طالما ان الاجيال تتغير ، فكلا النمطين سيبقيان منذ ان غنى ذلك الشامي على قطه وهو يأكل سميكاته ، تواصلا الى الذي اتخذ من الحمار حبيبا ، ولا يجب النظر الى الموضوع و كأنه صراع بقاء وان كل نمط يحاول ان يلغي الاخر لان ألآجيال تتغير، واذا كنا نقف في صف عبدالحليم قبل ستين سنة فان تعاقب الايام و توالي السنين جعلتنا ننظر الى الموضوع من زاوية اخرى.

ولكن الحذر كل الحذر من فئة متواجدة في كل قطر عربي ومتسلحة بالثقافة الاجنبية دون غيرها مستسلمة تمام الاستسلام للجانب السلبي من تيار العولمة الجارف ، ترى في كل انتاج الغرب الفني هوالنموذج الآمثل ، وتحاول جهدها الغاء الموسيقى العربية برمتها بحجج واهية ولعل أهم هذا الحجج هو موضوع الربع تون وعدم قابليته للهرمنة وبالتالي التطور الى ألآحسن ...والمشكلة تكون أعظم لوتبوأت أمثال هذه الشخصيات مراكز القرار وانعكست آراؤهم الشخصية على قراراتهم ، مما يكون طبقة منسلخة عن الواقع الاجتماعي قد يؤثر ذلك سلبا على الثقافة الوطنية وبالتالي على الهوية ولها تداعيات لا تخلو من الخطورة ، واذا كنا لا نستطيع ايقاف سيل العولمة الجارف وليس هذا هو المطلوب قطعا ، فلا أقل تحاشي الانجراف نحو الصخور .

ان الطعن في الهوية الثقافية أو مسها على أقل تقدير يعتبر عدوانا على الوطن ، أما اذا كان من قبل احد ابناء الوطن المنسلخين عن الواقع الثقافي فالامر يحتاج الى وقفة ومراجعة .

لانستطيع لوم هؤلاء على افكارهم ، فهم فئة من المجتمع لهم فكرهم ، وليست الافكار وقفا على فئة دون اخرى وليس علينا ادعاء احتكار الحقيقة المطلقة ، وعلي الجميع استبعاد اساليب الوعظ والارشاد بل مجابهة الفكر بالفكر . علينا اقناعهم ان الربع تون بقى في ضمير الشعب العربي الاف السنين وتردد صداه فى تراتيل كنائسنا الشرقية وتواشيحنا الدينية وفي قراآتنا المتعددة لكتاب الله وتستسيغه كثير من الشعوب المتثاقفة معنا ، ولا يعني عدم استساغة بعض الشعوب له ان نلغيه أو نستبدله ، واذا كنا ننظر الى الامور بهذا المنظار فعلينا أيضا الغاء بعض الحروف كالعين والحاء من لغتنا لاستصعاب نطقها من قبل الغير .

ان من ألاهمية بمكان ان نزيل ما اكتنف عقول بعض من ابنائنا من لبس وعدم الفهم ، وفي اعتقادي اننا الملومين اولا ، فنحن لم نوضح بصورة عقلانية لافي مناهجنا الدراسية ولا في وسائل اعلامنا الرسمية وغير الرسمية أهمية ما تركه الاقدمون من مادة ثقافية عظيمة قوامها علم الموسيقى ، فابن سينا و الكندي والفارابي وابن رشد أعطوا لعلوم الموسيقى جانبا مهما في مؤلفاتهم ولكنها لم تحظ بالاهتمام كسائر العلوم الاخرى الا فيما ندر وفي الاوساط الاكاديمية ، بينما العلماء الغربيون أمثال درلنجيه وفارمر وغيرهم كثيرون مما لا يسمح المقام بذكرهم الذين قدموا الادلة على التأثير العربي على النظرية الموسيقية (٤)

تعتز شعوب العالم قاطبة بهويتها الثقافية ، وتشكل الموسيقى جزءا هاما منها وأحد أركانها . ومن طبيعة الشعوب التثاقف فيما بينها اذا ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على ذلك دون فرض أو النظر باستعلائية أودونية من احداها الى الاخرى ..وهذا مما لا تأباه طبيعة الشعوب ، ولا يشكل هذا التثاقف انتقاصا لطرف أو لاخر، فالتثاقف العربي التركي في الموسيقى والغناء على سبيل المثال وصل حد الاندماج لولا اختلاف اللغة .

لقد أوصل العرب بعض الالات الموسيقية الى الغرب فتقبلوها و باسمائها العربية ولم يروا في ذلك أي انتقاص بل اثراء زاد فنونهم بهاءا وجمالا ...وأعادوا لنا تلك الالات بأسماء اخرى بعد ان أدخلوا عليها التطوير، فالربابة انتقلت الى الغرب وتحولت هناك الى آلة اخرى اسمها الكمان وأصبح هو وعائلته ، الشيلو والكونترباص الركيزة الاولى التي تبنى عليها الفرق الموسيقية العربية دون أن يشكل ذلك انتقاصا لها ، كما استعار بعض فنانينا ما ابتكرته الشعوب الاخرى من فنون الايقاع وأقاموا علي اوزانها اللحون التي تفاعلت معها الشعوب الاخرى (نموذج ١) .

تزخر جدران أماكننا الاثرية و متاحفنا بصور ونقوش لالات موسيقية مختلفة الاشكال و الاحجام تدل على ما وصلت عليه عقول الاقدمين من شعوبنا من رقي وذوق , لكننا مع الاسف عاملناها معاملة الانتيك واكتفينا بعرضها في المتاحف بينما المفروض اعادة تصنيعها وتقديمها للعالم بصورة عصرية (نموذج ٢) .

الخلاصة

لايعتقد الكاتب ان هناك صراعا بين الاغنية العربية التقليدية وفنونها المختلفة وبين ما يسمى الان بالاغنية الشبابية ، فالاخيرة هي ظاهرة طبيعية ستنتهى بدخول شبابها الى عالم الرجولة ثم تبدأ ظاهرة اخرى مع شباب آخرين وسوف يبدو الامر و كأنه حلقة دائرية ما ان تنتهي حتى تعود من جديد . بينما الصراع الظاهر في الافق هو بين الموسيقى العربية وعلومها وارثها ومقاماتها وبين تلك الفئة المستلبة فكريا والتي ترى في كل هذا ثقافة متخلفة . ولا يجب ان ننأى بانفسنا عن اللوم ، فنحن من ساهم في تكوين هذه الفئة المستلبة لاننا لم نقدم لهم ما ينبغي تقديمه ... ماذا و كيف ومتى وأين ... فاعترف بانني لا أملك - وحدي - الاجابة على هذه الاسئلة وربما اتخذت محورا نقاشيا مستقبليا في احدى المنابر الثقافية .